حتى يَعرف هذا الجيل

قبل ربع قرن، قبل ٢٥ عاماً، ذات ١٣ نيسان ١٩٧٥، كنت في منزل والدي. كان عمري ١٧ سنة، وكل ما أذكره هو اني وبضعة رفاق فرحنا لأن حادث عين الرمانة أدى الى تعطيل المدارس يوم الاثنين ١٤ نيسان...

... ولكن سرعان ما انتقلنا من هذا الفرح السطحي الى الخوف والضياع ومحاولة فهم ما يحصل.

وما كان يحصل كان بداية المؤامرة على لبنان، مؤامرة التوطين، مؤامرة إعطاء وطن للفلسطينيين بديلاً من وطنهم الضائع عبر تهجير مجموعة من اللبنانيين ولا سيما المسيحيين في مخطط جهنمي جعل المسلمين في لبنان يظنون ان الحرب هي حرب مسيحية عليهم دفاعاً عما سمّي "الامتيازات" المسيحية في لبنان. ولقد أدى هذا "الظن" الى جعل الفلسطينيين يفرضون أنفسهم كجيش المسلمين في لبنان ضد "الامبريالية" و"الصهيونية" و"الرجعية" و"الانعزالية"... فسقط الجميع في فخ المؤامرة.

يومها كان العالم منقسماً يميناً ويساراً. كانت الحرب الباردة في أوجها بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية وكان العرب، كالعادة، أسرى شعارات طنانة ورنانة - لا تطن ولا ترن إلا في شوارع بيروت!

يومها كان الاعلام الفلسطيني فعالاً على المستوى المحلي والعربي وحتى الدولي، وكانت القوة العسكرية والسياسية وخصوصاً المالية الفلسطينية، قد مكنت الفلسطينيين من حكم نصف لبنان على الأقل.

كان الجسم اللبناني الداخلي ضعيفاً اجتماعياً واقتصادياً وكانت بذور الثورة والغضب والرفض موجودة، مما جعل هذا الجسم اللبناني جاهزاً للاختراق. وكان الشعار الخرافة هو الطائي، شعار "قوة لبنان في ضعفه".

يومها كان العرب يتصارعون على زعامة الشرق الاوسط، وكالعادة كان لبنان أفضل الساحات.

كانت أحلام الوحدة والضم والهضم، ما زالت تراود البعض، هذا البعض الذي أصبح يخطط بشتى الطرق كي يقتنص مبرراً للدخول الى "الساحة اللبنانية" واستعمالها لمآربه.

يومها كانت اسرائيل تخطط لتفتيت الوطن، وطن التعايش، لاسقاط هذه التجربة الفريدة من نوعها وتبرير وجود الدولة العنصرية.

يومها كان جيلنا ضائعاً بين حلم الثورة - الثورة الفلسطينية - وكابوس المعارك ضد اللبنانيين.

وأدى اللاموقف السياسي عند رئيس الحكومة آنذاك الى عدم الاستعانة بالجيش، مما جعل الآخرين يتناتشون الجيش ويتقاسمونه.

وتحركت كل المجموعات الفلسطينية الموالية لعرفات ولـ"جبهة الرفض" ولسوريا ولليبيا وتقاسمت الأدوار في اجتياحها القرى والمدن الآمنة.

سقط كل شيء يومها، سقط الوطن من الداخل ومن الخارج، سقط لأنه كان يفتقر الى القوة والحصانة الداخلية والخارجية.

قبل الحرب لم يعرف جيلنا معنى الوطنية، معنى الهوية وأهمية الانتماء الى الوطن.

لقد تعلمنا هذه المعاني يوماً بعد يوم، قذيفة بعد قذيفة، مخطوفاً بعد مخطوف وشهيداً بعد شهيد...

تعلمنا هذه المعاني وأدركنا ان الوطن ليس فندقاً وان تحرير الوطن وصونه ليسا بحفل كوكتيل وأن الاستقلال لا يُعطى أو يوهب وان الحرية، ومهما كان ثمنها، هي أساس وجود الوطن.

أول أيام الحرب كان لون المعارك طائفياً. وبدأت تحت ستار حرب أهلية طائفية، ولكن سرعان ما تكشّفت عن حقيقتها عندما تحولت الى حرب ضد لبنان واللبنانيين، وأدرك الجميع انها حرب مصير وان الجميع كان يحارب وطننا الصغير وأن هدفنا هو الصمود من أجل البقاء بينما هدفهم تفتيت الوطن وتقسيمه لاقتسامه وبلعه أو ضمه او الغائه... وفي أحسن الأحوال استعماله "ورقة"!

سرعان ما فهمنا أننا نحارب على جميع الجبهات ضد الاسرائيلي وضد الفلسطيني وضد العراقي والليبي والسوري والايراني والاميركي والسوفياتي...

- التتمة في الصفحة ٢١ -

جبران تويني